﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النَّبأ: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تأكيدُ حتميَّة الجزاء، بإظهارِ ندامةِ أهلِ الشَّقاء

لمّا عرضَتِ السّورةُ أحكامَ النَّبأ العظيم من الجزاءِ والوعيدِ والآياتِ الّتي تُظهِرُ عظمةَ قدرةِ اللّه تعالى ومظاهرَ عدلِهِ وحكمتِهِ وسَعةِ فضلِهِ، خُتمت بالتَّصريحِ بأنَّ يومَ الحسابِ واقعٌ لا مَحالة، وسيطّلعُ فيه كلُّ إنسان على أعمالِهِ، ويشعرُ الكافرُ بالنّدم العميقِ على ما قدّمَتْ يداهُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾: المَرءُ: الرّجلُ، والأُنثى: المرأةُ، والمُروءةُ: كمالُ الرّجوليَّة، وقيل: هي مُشتقّةٌ من لفظ المَرْء، كالرُّجولة مشتقّةٌ من لفظِ الرّجُل؛ فهذانِ مصدرانِ لا فعلَ لهما[2]. والمُروءَةُ: الإنسانيَّة، ومَرُؤَ الرَّجلُ: صار ذا مُروءةٍ فهو مَريءٌ[3]. والمَرءُ بالفتحِ: الإنسانُ؛ إذ هو نسْلٌ له تصرّفٌ ونفْعٌ وتعاون، وأُنثاه: مَرأةٌ، وهو أيضًا امْرُؤ وهي امْرَأة[4]، وكأنَّ المَرءَ تُقالُ للإنسانِ في حالِ يَقظتِه وإدراكِه، وهي أنفَعُ أحوالِه، مأخوذٌ ذلك منَ الطَّعام المَريءِ النّافعِ السّائغِ الَّذي لا يتعسّرُ بعدَ أكلِه، ولذلك جاء ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ هنا في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ﴾ أي الإنسانُ في أجْلَى نَظَرٍ له، إذ هو في مقامِ الانكشافِ التّامّ الَّذي لا يَنحجبُ فيه نظَرٌ، ولا يَتيهُ عنهُ إدراكٌ، ومعنى ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ في الآية: أي: كلُّ امرئٍ مُسلمًا كانَ أوْ كافِرًا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (مرأ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (مرأ).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مرأ).
(5) القنّوجيّ، فتح البيان: 15/ 46.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

والمعنى: تهديدُ الكفّار وتحذيرُهم وتخويفُهم من ذلك اليوم، فكأنّه قيلَ لهم: إنَّنا يا أهل مكّةَ وأمثالَكم من الكفّار حذّرناكم وخوّفناكم عذابًا قريبَ الوقوع وهو يومُ القيامةِ؛ فإنَّه لتأكُّدِ وقوعِهِ صارَ قَريبًا، ولأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، كما قالَ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النّازعات: 46]، وفي هذا اليوم القريبِ ينظُرُ كلُّ امرئٍ ما قدّمَ مِن خيرٍ أوْ شرّ في حياتِهِ الأولى في الدُّنيا، كما جاء في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30]. ويتمنّى الكافر من شدّةِ ما يعانيهِ من أنواعِ الأهوالِ والعَذابِ أنْ لم يكُنْ إنسانًا يُبعَثُ، وإنَّما كان ترابًا كالحيواناتِ بعدَ الاقتصاصِ مِن بعضِها لبَعضٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عَن سابقَتِها:

جملةُ ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ استئنافيّةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، فهي افتتاحُ كلامٍ مستقلٍّ فيه تحذيرٌ صريحٌ. أوْ معترضةٌ بينَ قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ وقولِه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾؛ للتّنبيهِ والتّشديدِ بين الجملةِ السّابقةِ واللّاحقة، فهي تنبِّهُ السّامعَ أنَّ هذا المآبَ الَّذي أُمِرَ باتِّخاذِهِ إنَّما جاء التّحذيرُ من تركِهِ بما ينتظِرُ من عذابٍ قَريب، وكلا الجُملتينِ المُعترضةِ أوِ الاستئنافيّة تردانِ على جهةِ الاستقلالِ والفَصْل[2].

التّحذيرُ الصَّريح، من العذابِ القريبِ الفَسيح

نكتةُ التّوكيد بـ(إنَّ) في ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾:

افتُتِحَ الخبرُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾ بحرفِ التّأكيد

تنزيلُ غيرِ المُنكر، ليُبادرَ إلى العملِ المُثمِر

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 28.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.

للمبالغةِ في الإعذارِ بتنزيلِهم منزلةَ مَن يتردّدُ في ذلك، إذِ جملةُ ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ مسوقةٌ لقطعِ العُذْر وليس لإفادة الحُكم وتأسيسِه؛ لأنّ كونَ ما سبق في الآياتِ إنذارًا أمرٌ معلومٌ للمُخاطَبين أنَّه كذلك لا يَخفَى على أحد[1].

دلالةُ التَّعبير بالماضي مُسندًا لنونِ العَظَمَة ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾:

وقعَ الفعلُ الماضي في قولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ مسندًا إلى ضَميرِ العَظَمة؛ لتقويةِ الحُكم وتأكيدِ صِدقِ الإنذار كحالِ النّذيرِ الَّذي يَتبرّأُ مِن مَسؤوليَّةِ ما قد يصيبُ النّاسَ إنْ لم يَحذروا، فيقولُ: (أنا النّذيرُ العُريان). والإنذار هنا: إعلامٌ بوقوعِ شرٍّ في المستقبل القريب، وعُبِّر عنه بالفعلِ الماضي ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ أعظمَ موجِبات الإنذار قد حصلَ وانتهى ذكرُه قبلُ، حينَ بُيّن حالُ الطّاغينَ في جهنّمَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابٗا﴾[2].

التّحذيرُ الإلهيُّ الـقـاطِـع، لكلِّ مُنكِرٍ طامِع

بلاغةُ تقديمِ المُسندِ إليهِ في ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾:

قدّمَ النَّظمُ الكريمُ المُسندَ إليه (نا) من ﴿إِنَّآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ على المُسنَد وهو جملةُ الفعلِ ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾؛ لأنّها هي الّتي أُسنِدت إلى الضَّمير السّابق، والجملةُ افتُتحتْ بالضَّمير المُنفصِل مع (إنَّ) لإفادةِ توكيدِ الحُكم وتقويتِهِ معَ الحصْرِ، أي: ليس غيرُنا أنذركم، فنحنُ بعظمةِ سُلطاننا وجلالِ قُدرتنا تولّينا إنذارَكم بأنفسِنا لا واسطةَ فيه، وهذا التَّقديمُ يُشعِرُ المُخاطَبَ أنَّ الإنذارَ ليس كلامًا عابرًا، بل هو إنذارٌ صادرٌ عن اللّه تعالى بذاتِه، فلا مجالَ للاستهانةِ بهِ[3].

توكيدُ الإنـذار، يـقـطَـعُ طـريـقَ الغفلةِ والإنكار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.

نكتةُ التَّعبير بالمُسندِ الفعليّ ﴿أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾:

الإنـذارُ الإلـهيُّ واقـعٌ، بـالـدّالّ اللّفظيّ القاطِع

جاءَ المُسنَدُ هنا جملةً فعليَّة ﴿أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾ لا اسميّة، لِما في الجملة الفعليّة من دلالةٍ على الحدوثِ والتّجدّد والإنشاءِ، بخلاف الجملةِ الاسميَّة الّتي تفيدُ الثّبوتَ والدّوام. فالمقامُ هنا مقامُ إنشاءِ التّهديد والإنذار، وهو عملٌ يحدثُ ويتحقّقُ في لحظةِ المُخاطبة، وجاءَ بالفعل: ﴿أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾ ماضيًا؛ ليُشعِرَ السّامعَ بأنّ هذا الإنذارَ واقعٌ عليهم ومُتحقّقٌ حدوثَه، لا مُجرّد وصفٍ ثابت، ولو قيلَ: (إنّا مُنذروكُم) بالجُملة الاسميَّة، لكانَ المعنى أقربَ إلى الإخبار عن صفةٍ ثابتةٍ، لا إلى فعلٍ مُنجَزٍ وقعَ بالفِعل[1].

بلاغةُ (الاكتفاء) بذكرِ النِّذارة عن البِشارة:

الاعـتـنـاءُ بالتّهديد مُقدّمٌ عـلـى الـوَعـدِ والتّرغيب

الاكتفاءُ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ بذكرِ النّذارةِ دونَ (البشارة)؛ لمُراعاة مُقتضى المَقام، إذ السّورةُ كلّها في مقامِ التّخويفِ والتّهويلِ والتّهديد، فجاءَ ذكرُ الإنذار مناسبًا لجوِّ السّورة خاصّةً في افتتاحِها، إذ الكلامُ موجّهٌ للمكذّبين المُستهزئين[2]، كما أنَّ الاقتصارَ على ذكر العذابِ القريبِ أشدُّ وقْعًا على النَّفس، فإنَّ إغفال الطّرفِ الآخرِ (البشارة) يُركّز الذّهن على الخطَرِ الدّاهم دون أن يُلهيَ عن ذلك بذكرِ النَّجاة. وذُكِرتِ النّذارةُ وأُريد معَها التّبشيرُ أيضًا، لأنَّهما مُتلازمان؛ فمَن نجا منَ العذاب فلهُ الفوزُ بالنَّعيم، وكانَ الاقتصار على جانبِ الإنذار أوقعَ في التّهديد، والبشارةُ لازمةٌ عنهُ[3].

توجيهُ عودِ ضميرِ الخِطاب في ﴿أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾:

الاهـتـمـامُ بـالمُـخـاطَـبـين لأنَّهم من جُملةِ المُكذِّبين

ضميرُ الخطابِ في: ﴿أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾ لمُشركي العرب، فإنّهم أنكَروا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 43.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.

البعثَ واختَلفوا فيه. أي: أنذرناكُم بما ذكر في هذه السّورة من الآياتِ النّاطقةِ بالبَعث المثبتة لوقوعه؛ إذ مَن قدَرَ على خلقِ العالَم فهو قادِرٌ على إفنائِهِ وإيجادِهِ مُجدَّدًا[1].

دلالةُ المَجازينِ في ﴿قَرِيبًا﴾:

توصيفُ العذابِ بالقَريب وعيدٌ لكلِّ مُستبعِدٍ لهُ وتهديد

وصفُ العذابِ بـ﴿قَرِيبًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ فيه مَجازٌ في الإسناد، أي إسنادُ ما ليسَ لهُ، إذ أُسنِد (القرب) إلى العَذاب، مع أنّ القربَ في الحقيقة وصفٌ للوقوعِ أوْ للزَّمان، لا للعذابِ ذاتِه؛ فهو مجازٌ عقليٌّ، وفيه كذلك مجازٌ في اللَّفظ نفسِه، حيثُ أُطلِقَ (قريبٌ) وأُريدَ بهِ (مُتحقِّقُ الوُقوع)، والعلاقةُ: اعتبارُ ما سيقَعُ مُستقبلًا كأنّه واقعٌ حاضِرٌ، أوْ العلاقةُ المُجاورةُ أوِ المُلابسة بين المستقبَلِ المُتيقَّنِ الوقوع والحاضِرِ المحقَّق الحُصول، فهو مجازٌ مرسَلٌ، فالمجازُ العقليُّ في الإسناد، والمجازُ المرسَل في اللَّفظ[2].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالنَّظَر دونَ (الإبصار والرُّؤية):

مـواجَـهـةُ الأعمال، تَقتضي الاستعدادَ قبلَ وُقوعِ الآجال

لفظُ ﴿يَنظُرُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يُمكِنُ أنْ يكونَ مِن (نَظَر العَين)، أي البَصَر، فيُفهِمُ أنّ الإنسانَ يومَ القيامة يَرى عيانًا ما قدّمَتْ يداهُ من أعمال، ويَرى جزاءَهُ ماثِلًا أمامَه رأيَ العَين[3]، ويمكنُ أنْ يكون النَّظرُ مُستعمَلًا مَجازًا، بمعنى الوجدانِ والعِلم بالجزاء، لأنَّ الجزاءَ نفسَهُ يُرى ويُعايَن؛ إنْ كان خيرًا يفرَحُ به، وإن كانَ شرًّا يراهُ ويَذوقُهُ، فيجدُهُ في قلبِهِ ويتيقّنُ منه تيقّنَهُ من الأمورِ المَحسوسةِ المُشاهَدة. ومبنى ذلك على أنَّ الوُجدان منقولٌ من: وجَدَ الشّيءَ ولَقيَه، وأصلُهُ في الأمور الحسيَّة، ثمَّ نُقِل معناه إلى الأمورِ القلبيَّة؛ ولمّا كان وجدانُ الشّيءِ ولُقيَه أمرًا يقينيًّا،

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 43.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 222، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 56.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 57.

كانَ الأمر العقليُّ بمنزلتِه، وإنما ساغَ مجيءُ (وجدَ) للعِلْم؛ لأنّ مَن وجدَ الشّيءَ على حقيقتِهِ فقد علِمَه[1]. وهذا الاستعمالُ مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ الإطلاق، أي إطلاقُ النّظَر وإرادةُ وجدانِ الشّيء، ومثلُ ذلك قولُهُ تعالى: ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ [الزّلزلة: 6] أي ليَجِدوا جزاءَها يَقينًا لا يتفاوَتُ بينَ مَواجيدِهم الباطنة وحواسِّهم الظّاهرة. فجيءَ بـ(النّظر) لما فيه من تجسيدِ المواجهة بين العبد وأعمالِهِ، وكأنّه يرى أعمالَهُ مجسّمةً أمامه، وكانَ لفظُ ﴿يَنظُرُ﴾ جامِعًا بين معنى الرُّؤية الحسيَّة والمَجازيَّة، وهو الوجدانُ النَّفسيُّ اليقينيُّ والمطابقةُ بالجَزاءِ العَلَنيّ المُشاهَد[2].

معنى التَّعريفِ ودلالتُهُ في ﴿ٱلْمَرْءُ﴾:

(أل) في لفظِ ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ من قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ لتعريفِ الجِنس؛ فيكون المرادُ (جنسَ الإنسان)، أي كلُّ إنسانٍ بلا استثناءٍ فيشمَلُ المؤمنَ والكافِر، والبرَّ والفاجِر، فاللّفظ عامٌّ[3]. فالتَّعريفُ هنا أفادَ الشُّمولَ والعُمومَ معَ استحضار صورةِ الإنسانِ في مَقام المواجهةِ لأعمالِهِ، ليَشعُرَ السّامعُ أنَّ الآية تتحدّثُ عنه هو بالذّات.

كـلُّ امـرئٍ مُـنـذَر، فعليهِ الاستعدادُ قبلَ الرَّحيلِ المُقرَّر

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها في ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾:

﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فيها وجهان:

الأوّل: موصولةٌ بمعنى (الَّذي)، وهي مفعولٌ به لـ ﴿يَنظُرُ﴾، والمعنى: يومَ يشاهِدُ المكلّفُ (مؤمنًا كان أو كافرًا) جميعَ الَّذي قدّمَه من أعمال خيرًا أوْ شرًّا. والتَّقديرُ: (ما قدّمَتْهُ يداه)، والعائدُ (الهاء) محذوفٌ.

مواجهةُ جميعِ الأعمال، دليلٌ عـلى عـدلِ ذي الجَلال

الثّاني: (استفهاميّةٌ)، بمعنى (أيَّ شيء؟) وهي منصوبةٌ

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 2/ 12.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 44.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 44.

بـ﴿قَدَّمَتْ﴾ على المفعوليّة، والمعنى: يومَ ينظرُ المرءُ أيَّ شيءٍ قدّمَتْ يداه؟ والفعلُ ﴿يَنظُرُ﴾ حينئذٍ مُعلّقٌ عن العمَلِ في معمولِهِ لفظًا لا معنىً بسببِ الفصلِ بما لهُ حقُّ الصَّدارة وهو الاستفهامُ؛ لأنّ النظَرَ طريقُ العِلْم أوِ المرادُ به هنا العلمُ[1].

فعلى الوجهِ الأوّل إفادةُ المُعاينةِ للأعمال، وعلى الوجهِ الثّاني: إفادةُ التأمّلِ والسُّؤال عمّا قدّم، فيكونُ أبلغَ في كشفِ حالِ الإنسان أمامَ عمَلِهِ.

دلالةُ التّعبير بالماضي ﴿قَدَّمَتْ﴾:

عبّر بالماضي في قولِهِ: ﴿قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ لأنّه أُريد به ما كسَبَه في الدُّنيا مِن خيرٍ وشرٍّ وصارَ مُستقرًّا وثابتًا في صحائفِ الأعمال، فدلّ المُضيُّ على التَّحقُّق والانقضاء، وفيه إشارةٌ إلى فواتِ الأوان بامتناعِ العملِ والاكتساب، فلم يعُدْ في إمكانهم شيءٌ تقدّمُهُ أيديهم أوْ تستدركُهُ[2].

تقديمُ العمل والإيمان، قبلَ فواتِ الأوان

بلاغةُ المجازِ المُرسَل في ﴿يَدَاهُ﴾:

دلّ ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ على الأعمالِ الّتي قدّمَتْها اليدان، لكنَّ الحقيقة أنَّ العملَ لا يقتصِرُ على اليدين، بل يشمَلُ اللِّسان والرّجلين، والجوارحَ كلّها، بل حتّى ما في القلب مِن نيّات؛ إذن التّعبيرُ بـ ﴿قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ هو مجازٌ مرسَلٌ من باب إطلاقِ الجزءِ وإرادةِ الكلّ والعلاقةُ جزئيّة، فاليدُ جُعلتْ مُمثِّلة لكلِّ الجوارح والطّاقات الّتي يعمَلُ بها الإنسانُ، أوْ يكونُ ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من بابِ الاستعارةِ التمثيليّة، فيكون قد شُبِّه الإنسانُ في مباشرتِهِ لأعمالِهِ المتنوِّعة بصورةِ الصّانعِ الّذي يصنعُ بيدَيهِ أشياءَ مُختلفة، وكأنّ الأعمالَ مصنوعاتٌ، والإنسانَ صانعٌ لها يُباشِرُها

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 45، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 37.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215.

بيديه. وهذا أوضحُ في تصوير العملِ على أنّه شيء محسوسٌ مصنوعٌ على إرادةٍ واختيار. فذكرُ اليدين هنا تمثيلٌ بالمسؤوليّة عن العمل. وهذا أحسنُ من اعتبار ذكر (اليدين) هنا من بابِ التّغليب؛ لأن البلاغةَ ليستْ في مجرد تغليبِ (اليدين) على بقيَّة الأعضاء، وإنما في تشبيهِ حالة العمل بحالةِ الصّانعِ المُباشِر بيديه. فهنا خصوصيّةُ التّمثيل أبلغُ من خصوصيّةِ التغليب[1]. كما أنّ في الاقتصارِ على ذكرِ (اليدين) فقط إيجازًا بليغًا؛ فقد أغنى ذِكرُهما عن تعديدِ سائرِ الأعضاء، وفيه إيماءٌ خفيّ إلى أنَّ أكثر الأعمال تصدُرُ عنِ اليدَين، فهي أخصَرُ طريقٍ للتّعبير عن حَصيلةِ العمل، كما أن فيهِ إشارةَ تهويل؛ لأنَّ اليدين هما أداتانِ رئيستانِ للكَسْب، وكأنَّ العبدَ يُحاسَب على كلِّ ما امتدّتْ إليه يداهُ مِن خيرٍ أوْ شرٍّ[2].

نكتةُ تخصيصِ ذِكر ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾:

بدلالةِ الاكتفاء، يُعرَفُ قولُ أهل الإيمانِ والوَفاء

في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ خُصَّ الكافرُ بالذّكرِ مع أنّ الموقفَ عامٌّ يشهدُهُ جميعُ الخلق، إظهارًا لشدّةِ النّدامة عندَهُ، فالكافرُ هو أكثرُ النّاس ندامةً في ذلك الموقف، إذ يرى الخَسارةَ الكاملة، بخلافِ المؤمن الّذي يَرجو الثّوابَ. وللتّشهير بهِ وتخصيصِهِ؛ لأنَّ مقام الحديث هنا مقامُ وعيدٍ وتهديد، فجيءَ بلفظِ الكافر للتّشهيرِ بهِ وتثبيتِ أنَّ هذه الحسرةَ خاصّةٌ بمَن كفَرَ، لا بمَنْ آمنَ[3].

مَعنى التَّعريفِ ودلالتُهُ في ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾:

كلُّ الكافرين يَندَمونَ على التّفريط بإيمانِ المؤمنين

كلمةُ ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي﴾ عُرِّفتْ بـ (أل)، وهي إمّا للجِنس، والمرادُ جنسُ الكافر، فيشمَلُ كلَّ كافرٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 57، 58.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 222، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 58.

فهو تصويرٌ لمآلهم جميعًا، وأوّلهم إبليسُ أبو الكافِرين، وإمّا للعهدِ العلْميّ: أي الكافر المعلوم في ذلك الموقف، وهو مَن قامَ في مقامِ النّدامة الكُبرى، حينَ رأى أهوالَ القيامة، إذن فالتّعريفُ هنا أُريدَ به الاستغراقُ والتّمثيلُ، أي إنَّ كلَّ كافرٍ مهما كانَ حالُه يومَ القيامةِ مصيرُهُ الحَسرةُ والنّدمُ حتَّى يَتمنّى الفَناء[1].

الغرضُ منَ النِّداء والتَّمنِّي في ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾:

تمَنّي الكافرين للفناء، تعبيرٌ عن شدّةِ الشَّقاء

الغرضُ من النِّداء في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ التّنبيهُ والتّفجّع؛ إذ يُنادي نفسَه أوْ حالَه ليُظهِر شدّةَ حسرتِه، والغرض من التّمنّي التّعبيرُ عن العَجْز واليأس؛ لأنَّه يتمنَّى أمرًا محالًا، وهذا أبلغُ في تصوير انقطاعِ رجائِه وبلوغ ندامته الغايةَ؛ فالنّداء والتّمنّي اجتمعا هنا لإبرازِ شدّةِ النّدم المَمزوجِ باليأس، حتَّى لم يجدِ الكافرُ ما يَطلبُهُ إلّا الفناءَ المَحض، وتركيب ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ إمّا أن يكونَ حرفُ النّداء فيهِ لمجرَّدِ التّنبيه، فلا يقدّرُ منادى محذوف، ولذلك باشرتِ الحرفَ (ليت)، وإمّا أنْ يكون للنِّداء حقيقةً والمُنادى محذوفٌ تقديرُهُ: (يا هؤلاءِ أوْ يا هذا لَيتني كنتُ تُرابًا)[2]. وليس هناك ما يمنَعُ كونَ المنادَى المحذوفِ يَقصِدُ به نفسَه زيادةً في الحَسرة، كمن يُكلّم نفسَهُ عند شدّةٍ ألمّتْ به، ويقولُ قاصدًا نفسَه: (يا هذا ليس لها حلٌّ، ليتَكَ ما كنتَ!) من هولِ الكربِ الَّذي ألمّ به ولشدّةِ يأسِهِ من مُناداةِ غيره، إذ لا ينفَعُ نداءُ أحدٍ، فيكون بذلك قد جرّدَ من نفسِهِ شَخْصًا آخر يُخاطِبُهُ ويُناديه ويَبثُّ إليه ما يعجَزُ عنِ البَوْحِ به لغَيره، وهذا من بديعِ أسلوبِ التّجريد في مقامِ النِّداء.

نكتةُ التَّعبير بفعلِ (الكونِ) ماضيًا:

تَـمَـنّـي الـعـدَم على هذا المَصيرِ المؤْلِم

التَّعبيرُ بفعلِ الكونِ ماضيًا في: ﴿كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ يفيدُ توكيدَ الرّسوخ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215.
(2) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/ 34.

في تمكّن حالةِ اليأس منه، وعمْقِها في داخِلِه، وكأنَّ الكافر يريد لو كانَ حقيقةً ماضية واقعةً، لا مجرّد حالةٍ مُتوقَّعة[1].

نُكتةُ تنكير ﴿تُرَابًا﴾:

في قولِه تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَابَۢا﴾ تنكير ﴿تُرَابًا﴾ أفادَ التّحقيرَ والتّهوين: أي يتمنَّى الكافرُ أنْ يكون شيئًا حقيرًا لا يُلتفَتُ إليه، كأيّ ذرّةِ ترابٍ منثورة، ويفيدُ العُموم والشُّمول: أي أيّ ترابٍ كان، لا يهمُّ نوعُهُ ولا مكانُهُ، فالمقصودُ مطلقُ التّراب؛ لأنّه رمزٌ للفَناء، كما يصحّ أنْ يفيدَ التّكثير والتّفجّع، كأنّه يتمنَّى أن يذوبَ في جنس التّرابِ كلّه، فلا يُرى له أثرٌ ولا يُعرفُ له وجودٌ.

نـــدمُ الـكـافـر ورغـبـتُـهُ في الفَناء، على هذا الّذي يَنتظِرُهُ بلا انتهاء

نكتةُ تخصيصِ هذه المقالةِ بالذِّكر:

تخصيصُ هذه المقالةِ بالذِّكر في قولِه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَابَۢا﴾؛ لإظهارِ الغايةِ في الحَسْرة[2]، إذ لم تُنقَل عنِ الكافر يومَ القيامة إلّا هذه الكلمةُ، للدِّلالة على أنّ أقصى ما يبلغُهُ ندَمُهُ أنْ يتمنَّى العدمَ المَحْض، وفي هذه المَقالة مُقابلةُ حالِه بحالِ البَهائم؛ لأنَّ البهائمَ تصيرُ ترابًا يومَ القيامة، فلا حسابَ عليها ولا عِقاب، والكافرُ يتمنَّى أنْ يكونَ مثلَها، وهي مقالةٌ تشيرُ إلى سقوطِ كلِّ أملٍ، فلو كانَ يتمنَّى النَّجاةَ أو التّخفيفَ لكان فيه بقيّةُ رَجاء، لكنَّ قوله ﴿كُنتُ تُرَابَۢا﴾ يدلّ على انقطاعِ رَجائِهِ بالكليَّة، وفي تخصيصِ ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَابَۢا﴾ بالذّكر إنطاقُه حَسْرةً وألمًا بجنسِ ما كان يقولُهُ كُفرًا وعِنادًا، فقد كانوا يقولونَ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢﴾ [المؤمنون: 82] فجعلَ اللّه عِقابَهُم بالتّحسُّرِ وتمنّي أنْ يكونوا من جنسِ التُّراب.

أقصى ما يبلُغُه نـــدمُ الـكـافـر، أنْ يتمنَّى حالَ الحيوانِ القاصِر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 58.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"